

## الانارة للفكرية في التراث العربي

للإنسان العربي تنطلق من الواقع المحسوس لترتد الى الواقع المحسوس، وهي معنية باقتناص الجزئيات بعيداً عن النزعة الفلسفية وان كانت ذات صلة رحمية بالتصور الديني ، واذا ما جئنا الى الشعر الجاهلي ، اسعفتنا بشواهد وادلة كثيرة حول هذه النقطة . وان لنا ان نقرا قول امرئ القيس :

وليل كموج البحر ارخى سدوله  
عليّ بأنواع الهموم لبيتلي  
فقلت له لما تمطى بصلبه  
واردف اعجازا ونساء بكلكل  
الا ايها الليل الطويل الانجلي  
بصبح وما الاصبح منك باملل  
فيالك من ليل كان نجومه  
بامراس كسان الى صم جندل

فهل نحن واجدون فيه غير صور حسية متلاحقة ، وغير كلمات معظمها ذات مدلول حسي واقعي ، بحيث يمكننا بقليل من الجهد تفكيك الصورة الشعرية الى اجزائها الاولية ؟

بعد عرض هذا الواقع يجب ان يشار الى ان عملية الاحياء لم يشمر لها بصد كما يجب وهي في الواقع لا يمكن ان تأخذ مداها ما لم تنصاف جهود اكثر من حكومة لانجاز خطة توضع لهذا الغرض الذي يجب ان يمر خلال مراحل الاختيار ثم النشر العلمي ثم التعريف والشرح والنسيب احيانا .

ان هذا كله لا يتم ما لم تواكب عملية ايجاد الناقد والنقد التراثيين اللذين يساهمان في هذه العمليات منذ بدئها . ثم اننا نحتاج اشد الحاجة الى تاجيح الوعي التراثي بتوسيع دائرة القراء التراثيين . وانا لا اعني قطعاً تربية الجيل الذي يجب ان يختص بالتراث بل اعني ان نجلب التراث الى جمهور المثقفين الذين يكونون القاعدة التي سينبع منها الادباء .

ان هذا يحتاج الى تخطيط ينجز مهمة التشويق والتقريب وبالتالي اثاره الاهتمام .

اننا نعد بذلك القارئ الذي يستوعب النماذج الجيدة من التراث والذي يستجيب لتلاوين التراث في الأدب المعاصر كما نعد بذلك الاديب الاصيل الذي يفيد من التراث كما يفيد من كل مصادر الثقافة . وان يتم خلال ذلك التواصل بين التراث والادب المعاصر بل يتم التواصل الذي لا يقل عن ذلك اهمية هو التواصل بين الادب والقارئ .

قد يبدو متجنبا على الحقيقة من يجزم بان تراثنا لم يدرس الى الان تلك الدراسة التي يستحقها ، ذلك ان ما كتب عن التراث نقدا وتحليلا كثير . غير انه لا بد من الاعتراف باننا قد فشلنا فشلا ذريعا في ادخال هذا التراث كمنصر رئيسي في ثقافتنا المعاصرة . وقد يتكء هذا الراي على دواع كثيرة ، ولكن اهمها فيما راي ، اننا رغم ثرثرتنا المتواصلة عن التراث ، لم نحاول ان نثبت امرا واضحا تمام الوضوح - في هذا التراث على وجه الخصوص - وهو « قوة الانارة الفكرية الذاتية » فيه ، وهو امر لا اظن الكثيرين ادخلوه في اعتبارهم حينما تعرضوا لهذا التراث مسلطين عليه اضواء باهتة من النظريات الجاهزة والاراء المنتحلة .

ويقتضي المقام توضيح ما اردهه بالانارة الذاتية ، حتى لا تغل مفهوما سائبا كثير مما نتجرعه ولا نكياد نسيغه من اصطلاحات واسماء بلا سميات .

ان اظهر ما بلغت اهتمامنا حين نقرا تراثنا العربي . تلك الواقعية التي تشع منه . واعني بالواقعية الوقوف عند حدود الواقع فيما هو متعلق به ، واعتبار ما فوق ذلك من اختصاص أعلى ، ينهض به الوحي في اتجاه مواز ومهيمن في ذات الوقت ، فالحركة الذهنية

رموز نانوية تمنى القارئ وتحتاج الى هوامش وشروح دون ان تساوي ما يمكن ان تمنحه من ايحاء . الا ان ظاهرة ايجابية في اختبار الرمز التراثي جديرة بالثمين هي ظاهرة اتوجه الى الرمز السياسي التقدمي فبرزت اسما ( ابي ذر الفاري ) و ( عمار بن ياسر ) و(الحلاج) وغيرها .

\*\*\*

بعد ان استعرضنا القنوات التراثية الثلاث التي تصب في عملية تكوين الادب العربي المعاصر الى جانب قنوات انسانية ومعاصرة اخرى ارى لا بد من التوقف عند مجمل التعامل مع التراث لتكون على بيئة من عملية التكوين الادبي فان التراث العربي يتميز بامور :

- ١ - سمته وضخامته ، فان المخطوطات وحدها تبلغ الملايين .
- ٢ - تبعثره ، فانك لا تكاد تجد قطرا في العالم يخلو من هذه المخطوطات .
- ٣ - الجهل بمعظمه ، فنحن لا نملك فهارس دقيقة لهذه المخطوطات اضافة الى ان شطرا كبيرا منها يقع في مكتبات خاصة مطهورة لا ترى النور وهي معرضة للتلف .
- ٤ - طغيان الجانب الادبي عليه ، وقد تكون هذا بالنسبة لنا الادباء مزية حسنة .

ان هذه الخصيصة الهامة تجعل من ترانسا كتاباً مفتوحاً ، غير ملفز ، يسهل علينا بهجرد تجاوز الرداء اللغوي انفاذ اتى روحه ، وتمثل عظمته وقدرته على العطاء المستمر .

والواقعية اللغوية ليست بالشئ القليل ، حين يراود فهم هذا التراث وبعثه حيا في الحياة الفكرية والادبية المعاصرة ، فالعرب جد كبير بين ان تفق بيني وبين تراثي جدر من التجريدات الذهنية والقوالب الفلسفية ، وييسر ان ارتع في تراث لكل كلمة فيه واعها المحسوس .

لهذا لا نعدم الصواب حين نؤكد ان العقلية العربية تجريبية في اصولها اللغوية ، ومن هنا فهي قوية قوة هائلة في الاستدلال الفكري ، لانها تفيد من نزعتها الاستقرائية افادة قصوى الى جانب الوسائل الفكرية الاخرى .

وهناك خصيصة اخرى لغوية يمكن ان نطلق عليها اسم - الفعلية - او - الحركية - ذلك ان الجملة العربية تبدأ عادة بالفعل ، والبدء بالفعل يعني فيما يعنيه اصفاء الاولوية في الاصول البعيدة للغة العرب على الحركة دون الاشياء .

فالوجود مصمت بدون حركة ، وهو اقرب الى الموت ، ولستنا بحاجة الى كبير ذكاء نستطيع تصور السباب فرحة العربي الجاهلي ازام لفئات الفزال ، وغرامه بحركاته ، وتشبيهه بحبيته به ، اذ ان حركة ما في قلب السكون المرعب قد تكون ايناسا بالحياة في عالم الصحراء الشاسع بصمت ، المهلك بقسوة .

ولنقرأ معا ابينا للاعشى يصور فيها ثورا « يلجا الى شجرة ارطى في منحرج رمال ، تعصف من حوله ريح شمالية هوجاء ، فتترك وجهه اغبر قائما ، وقد اكب الثور على اصل الشجرة يقربه ، يحفر فيها بيتا يؤويه في هذا الموضع المكشوف ، الذي تنهال رماله غير متماسكة ، فلما اضاء الصبح قام من وكره مبادرا ، وقد حان انطلاجه من حيث اقام ، فصيحته كلاب ( عوف بن ارقم ) الصائد عند شروق الشمس في الصباح المبكر ، وكان الصياد يقودها الى جنبه ، فلما رآه اطلقها عليه ، فانبعثت تتبعه كأنها جماعة النحل ، هيجها جامع العسل الذي يرتقي في ظله الجبال »

فتور الاعشى الذي شبه ناقته به في قوتها وسرعة جريها :

يلوذ الى ارطاة حقف تلفه

خريق شمال ، تترك الوجه اقتما

مكبا على روفيه ، يحفر عرقها

على ظهر عريان الطريقة اهيما

فلما اضاء الصبح قام مبادرا

وحان انطلاق الشاه من حيث خيما

فصيحته عند الشروق غدبة

كلاب الفتى البكري عوف بن ارقما

فاطلق من مجنوبها فانبعسه

كما هيج السامي العسل خسرما

فيها هنا حركات متتابعة ، عنيفة ، مليئة بالحياة ، انقوة فيها هي القيمة الكبرى . والنص الشعري هنا درامي في صميمه ، وقد تمسك هنا بفكرة مؤداها ان - العراما - عند العرب دراما لغوية تتحرك كمفردات في المسرح القصيدة ، لا كاشخاص بادوار فسي المسرح البناء .

ونحن نرى ان من الخطا الظن بان شعر العرب لم يعرف المسرحية كما هي عند اليونان لقصور فسي فهم العرب لهذا الفن ،

فاللغة العربية في فئس اقداسها ديناميكية حركية درامية فعلية .

واذا ايننا الى انفران انكريم وجدنا رافعا جديدا الى جانب الموافية اللغوية والحركة الفعلية وهو « العقلانية الفكرية » والتي يمكن اعتبارها وجه العملة الاخر ، حيث يصح لنا ارجاع السمة العقلانية في التراث العربي الى انفران انكريم مباشرة ، دون ان نعتبرها نتاج للاح بين انثقافين العربية واليونانية ، كما يحلو لبعضهم ان يظن فيما لا ينفع الظن فيه ، فقبل ترجمة الثقافة اليونانية وقبل منطق ارسطو الوافد ، كان هناك المنطق القرآني وهو منطق واعى يعوق في شموه كل منطق . فهو اذ يحدد وسائل المعرفة بقوله تعالى :

(( والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والابصار والافئدة ، تعلم تشكرون )) نراه يؤكد ان الحواس على اهميتها لا تفي بانفرض ، اذ هي امر مشاع بين الانسان وغيره من الحيوانات ، انما مدار الامر على قوة الربط بين الاشياء ، وهي قوة اذا تحرفت في ضرائق الاستدلال اصبح الناس « لهم قلوبا يفقهون بها ، ولهم عين لا يبصرون بها ، ونهم اذان لا يسمعون بها ، اولئك كالانعام بل هم اضل » . .

ولان العملية الفكرية منطاقة من اواقع عاندة آتية ، فسان السمع والبصر والفؤاد . . « كل اولئك كان عنه مسئولا » ، اذ لا يمكن للفكر ان يكون تويوما بلا مردود عملي ، وقد نعتبر هذا اصلا للسلكية الخلقية التي امتاز بها تاريخنا انحصاري .

وهناك الى جانب هذا كله ضرب من المنطق انفراتي فريد . وهو في باب الافحام يبعث على العجب ، ففي قوله تعالى « ام خلقوا من غير شيء . . ام هم انخالقون ؟ » نتيجتان نقصان في بناء الاستحالة ، وهما طرحان ضرحا ميانرا مشكللة الخلق ، وتسدان بنفس الوقت طرق الاجابة الخاطئة ، فلا يبقى الا الادعان للحق . وهو منطق فريد معجز حقا . .

وهكذا يتضح ما قصدته بقوة الانارة الذاتية في التراث العربي في اصوله ، فهو تراث واقعي عقلائي حركي اول ، وهو يستعصي على اساليب الدراسة على ضوء النظريات الجاهزة ثانيا ، الامر الذي نراه بحاجة الى قليل من الابانة ، وعلى وجه التحديد فيما يتعلق بالذوق الفني الادبي اواجبه توفره في اداسي اتراث . .

ان من يترك للعالم او لجزء منه امر اختيار ذوقه الشخصي ، لا يحتاج الى ملكات غير ملكة التقليد الشمية عند انقرو . اما من يرسم خطته بنفسه - كما يقول ستيوارت مل في كتابه القيم « بحث في الحرية » - فانه يستخدم جميع ملكاته .

وليس الذوق الفني او الحس الجمالي وليد صدفة ، ولا هو الهاما يتأتى من السماء انه معانة طويلة ووقوف متأمل ازاء جزئيات العمل الفني ، مصحوب بنض وجودي ، اي ان تولد لدى المنطق - خيرة فنية ذاتية - يلتفت بمقتضاها الى العمل الفني كحقيقة تمارس لا شيء يوصف .

فاذا سحبت هذه النظرية على الذوق الشعري المفترض وجوده في كل من يتعرض لنص شعري بنقد او تقيظ ، تبين لنا مدى الجهد اللازم في معايشة النصوص باجوانها وايحاءاتها ودلالاتها المختلفة ، واتضح ان القدرة الفنية الواجب توفرها ليست الا حصيلة حصار مستمر لمجوعات النصوص الادبية ، ابتداء بامرئ القيس والاعشى والنابغة ، وانتهاء بالشابي وعلي محمود طه شعرا ، وبدءا بعبد الحميد الكاتب واختتامها بنجيب محفوظ نثرا . . وهكذا فسي كل مضممار فني .

ان جمال شيء ما ، قوامه انساق داخلي بين اجزائه وعناصره ، وكما يقول الدكتور زكي نجيب محمود « فان جمال القصيدة من

الشعر هو آخر الامر نسق باطنى فيها ينتظم اطرافها ودقاتها ،  
وهكذا قل في جمال اللوحة الفنية وجمال التمثال وغير ذلك ..

وهكذا ، فان اولى مكونات الذوق الشعري العربي ، وهو امر لا  
مفر منه للناقد المعاصر ، تكمن في القدرة على فهم التراث ، وتمثل  
قيمه الفنية بعمق واصالة ، والوقوف بصبر في مواجهة نصوصه ،  
وهضم معطياته فكرا وفنا وخلقاً .

وتصدق ها هنا فكرة اليوت اندي يرى ان اكثر الشعراء معاصرة  
وقدرة على التجديد هم الذين نسمع فيما يقولون اصوات الاجداد .  
وهي فكرة الى النقد اقرب منها الى الشعر ، ذلك ان الذوق محمول  
على نهر التاريخ ، وكل حقبة تطيه من نكهتها ولونها الخاص بها .  
فاذا تبعنا مجرى هذا النهر ، ودرسنا مناخ كل بيئة اخترقها عسر  
العصور ، استطعنا معرفة خصائص كل لون من هذه الالوان ، وكل  
نكهة ، وكل عيب واستطعنا ونحن على حافة المصب الكبير ان نحيط  
بكل الابعاد الممكنة ، والتي هي القيم الفنية المتحصلة والمحتملة . نحن  
اذن نخطيء كثيرا حينما نحاول تضاهة نص ادبي - قديما كان او  
حديثا - بقوة النظريات المعروفة لدينا ، والتي غالبا ما تكون مستمدة  
من بيئات مغايرة ، ذات تاريخ وحضارة مغايرين . ولقد يحسن ان نستمد  
زيت مصابيحنا من نسج النص ذاته . ففهم المتنبي مثلا لا يكون على  
ضوء فلسفة القوة عند نيتشه . وكذلك فهم ابي العلاء لا يكون على  
ضوء تشاؤميته ، شوبنهاور ، بل يكون هذا وذاك مستمداً من النصوص  
الادبية لكليهما ..

وقد يستتبع هذا الفن يحذ استخلاص النظريات من الوقائع  
الادبية لا العكس ، على ما في ذلك من ( تجريب ) تستمع به اذواق  
من يخافون مواجهة التراث الا وقد لفوا انفسهم باسمال من هنا  
وهناك ، وبمزق من نظريات وتراقيم من مصطلحات ..

ولقد اتبع لي ان ابحث قليلا عن نصوص نضيه لنا عناصر ما قد  
نسميه « نظرية نقدية عربية » فكانت هذه النصوص التي نستخلص  
منها اساس هذه النظرية . قال تعالى « والشعراء يتبعهم الغاؤون ،  
الم تر انهم في كل واد يبهمون ، وانهم يقولون ما لا يفعلون » وفي قوله  
جل وعلا اشارة الى عنصرى الخيال والصدق .

● قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « انما الشعر كلام من كلام  
العرب ، تتكلم به في بواديه ، وتسل به الضفائن من بينها » . وقال  
ايضا : « انما الشعر كلام مؤلف ، فما وافق منه الحق فهو حسن ،  
وما لم يوافق الحق فلا خير فيه » .

وفي ذلك اشارة الى عناصر الجمال والاخلاق والصنعة .

● سئل سيدنا علي بن ابي طالب كرم الله وجهه عن اسباب تقديمه  
لامرى القيس فقال :

« لانه احسنهم نادرة واسبغهم بادرة ، وانه لم يقل لرغبة او  
لرغبة » . وفي ذلك اشارة الى عنصرى الجودة والصدق .

● سئل سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن اسباب اعجابه  
بزهير فقال :

« لانه لا يتبع الحوشي ولا يعاقل في المنطق » وهنا الاشارة واضحة  
الى البساطة والوضوح .

● يقول الفارابي « الاقويل الشعرية هي التي تؤلف منها اشياء ،  
شانها ان تخيل في الامر الذي فيه المخاطبة - اي القصيدة - خيالا  
ما ، او شيئا افضل او احسن ، اما جمالا او قبحا ، او جلالة  
او هوانا ، او غير ذلك مما يشاكل هذه . » ويقول ايضا « وانما

تستعمل الاقويل الشعرية في مخاطبة انسان يستنهض لفعل شيء ما » .  
وهنا يتبين عنصر ( 1 ) المثل ( 2 ) الاستنهاض . وما تقدم يتضح ان  
النظرية النقدية التي نطمح الى استخلاصها تقوم على ما يلي :

١ - لكي تتم للادب صفته يجب ان يعتمد على عنصرى الخيال  
والجمال .

٢ - لكي يتم للادب اثره ، وقوة جذبه الى قيم معينة يجب ان  
يعتمد على :

أ - القدرة الفائقة على رسم النموذج ( المثل )

ب - الصدق مع الواقع ، أي ان تكون الحقيقة نصب عيني الاديب دائما .

ج - الصدق مع الذات او ما يسمى بالصدق الفني .

٣ - الوضوح والبساطة ركنان اساسيان ، لا يقوم بدونهما ادب  
ناجح ، اذ يعتمد بدونهما الاتصال بين المبدع والمتلقي .

٤ - الادب قوة محركة ، تستدعي التزاما ، وتوحي بالتغيير .

ومع اعترافي بقصور هذه الالتفاتة عن استيعاب الفكرة التي  
ارمي اليها ، الا ان هذا لا يلغي ما ذكرته من ان استنطاق النصوص هو  
حجر الزاوية في فهم التراث العربي .

ونحن على أي حال مدعوون - اذا اردنا فهم هذا التراث - الى  
استخراج زيت مصابيحنا - كما سبق وذكرنا - من صميمه ، دون  
اللجوء الى اسقاطات هي الى الصب اقرب منها الى الجديدة  
والوضوح . فاذا نظرنا الى تراثنا مثل هذه النظرة ، سهل علينا  
جملة قوة مستمرة في حاضرنا الراهن ، واستوت لنا شخصيتنا  
الحضارية ، غير ان ذلك يتطلب قبل كل شيء انصرافنا عن  
الاستقرار في غيبوبة ( الاتباع الحضاري ) التي نعاني منها ، كما  
يتطلب عزما نافذا وصبرا جميلا في البحث ، وادبا جما في التناول .

وانه ليحزنني ان تذهب جهود كثير من مثقفينا سدى في تصيد  
افرازات الآخرين في حيسن ليس بيننا وبين كئوز تراثنا العظيم سوى  
خطوة .. او خطوتين .

ابراهيم خليل العجلوني

عمان